جامعة ابن طفيل
كلية الآداب والعلوم الانسانية
القنيطـــرة

مسلك : اللسانيات
الفصل : الخامس
المادة : سيميائيات الخطاب
الأستاذ : محســـن أعمـــار

... اللغة نظام من العلامات التي تعبر عن أفكار، ومن هذه الناحية فهي مماثلة للكتابة وأبجدية الصم والبكم والطقوس الرمزية ولأشكال وصيغ الاحترام والإشارات العسكرية إلخ... ورغم هذه المماثلة تبقى اللغة أهم الأنظمة المذكورة.

ولذلك يمكن أن نؤسس علما يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، فيشكل هذا العلم جزءا من علم النفس الاجتماعي وبالتالي جزءا من علم النفس العام. وسنطلق عليه اسم علم العلامات أو السيميولوجيا Sémiologie (من اليونانية sémeion علامة). وسيمكننا علم العلامات من معرفة ماهية العلامات والقوانين المسيرة لها. وبما أن هذا العلم لم يوجد بعد فيتعذر علينا أن نقول كيف سيكون، بيد أن لهذا العلم الحق في الوجود ومكانه قد حدد مسبقا. ولا يعدو علم اللغة linguistique أن يكون قسما من هذا العلم العام. وستطبق القوانين التي سيكتشفها على علم اللغة، فيجد نفسه بالتالي ملحقا بميدان محدد المعالم في إطار مجموع الأحداث الانسانية.

وسيكون من مهام عالم النفس تحديد المكانة الحقيقية للسيميولوجيا بينما تتمثل مهمة عالم اللغة linguiste في تحديد ما يجعل من اللغة نظاما متميزا بين مجموع الأحداث السيميولوجية faits sémiologiques وسنعود بالنظر في هذه المسألة في الصفحات المقبلة، ونكتفي بالتذكير هنا بالأمر التالي : إذا تمكنا للمرة الأولى من إدراج علم اللغة في مصاف العلوم فذلك لأننا تمكنا من إلحاقه بالسيميولوجيا.

لماذا لم يتم بعد الاعتراف بالسيميولوجيا من حيث أنها علم مستقل بذاته ويختص مثل غيره من العلوم بموضوع متميز؟ يبدو وكأننا ندور في حلقة مفرغة : فمن جهة تقدم اللغة أكثر من أي شيء آخر أساسا يساعد على إدراك طبيعة المسألة السيميولوجية، ومن جهة أخرى، لدراسة المسألة السيميولوجية دراسة مرضية ينبغي أن تدرس اللغة في حد ذاتها، لكننا لم نعالج اللغة، غالبا، إلا من حيث علاقتها بغيرها من المظاهر أو من وجهات نظر تغاير وجهة النظر المطروحة هنا.

فأولا : يوجد المفهوم السطحي الذي تتفق حوله الأغلبية فترى أن اللغة ليست إلا نظاما للتسمية، وتؤدي وجهة النظر هذه إلى الحيلولة دون البحث في طبيعة اللغة الحقيقية.

ثانيا : توجد وجهة نظر عالم النفس الذي يدرس التصرف الآلي للعلامة عند الفرد. وتعتبر وجهة النظر هذه أيسر المناهج التحليلية، لكنها لا تتجاوز إطار التنفيذ الفردي ولا تتطرق للعلامة التي هي بطبيعتها اجتماعية.

ثالثة : عندما ندرك ضرورة دراسة العلامة من ناحية اجتماعية فإننا نسلط اهتمامنا على خصائص اللغة التي تربطها بغيرها من المؤسسات الخاضعة - إلى حد ما - لإرادتنا. وبهذه الطريقة لا نصيب الهدف مرة أخرى، لأننا نغفل الخصائص التي لا تنتمي إلا للأنظمة السيميولوجية systémes sémiologiques عموما، واللغة خصوصا. والسبب في ذلك أن العلامة تخرج إلى حد ما عن الإرادة الفردية الاجتماعية: هذه هي الخاصية الأساسية للعلامة، ولكنها لا تتراءى للباحث من الوهلة الأولى.

ومن ثم فإن هذه الخاصية لا تبدو بوضوح إلا في اللغة، ولكنها تظهر أيضا في أشياء أخرى لا نعنى كثيرا بدراستها، ويترتب على هذا الاهمال أننا عادة لا نعي ضرورة إرساء قواعد علم خاص بدراسة العلامات، أو لا نرى منفعة في قيام مثل هذا العلم. ولكننا - على عكس ذلك - نعتقد أن القضايا اللغوية هي قبل كل شيء قضايا سميولوجية، بل نذهب إلى أبعد من ذلك في قولنا إن أي تطوير نقوم به في هذه الدراسة لن يكتسب قيمة إلا من خلال وعينا بهذه الحقيقة. وبالتالي فإذا أردنا أن نتعرف على الماهية الحقيقية للغة ينبغي بادئ ذي بدء أن نتناولها من الجانب الذي تشترك فيه مع غيرها من الأنظمة السيميولوجية المماثلة. ولذا فالعناصر اللغوية التي تبدو للوهلة الأولى ذات أهمية قصوى (مثل دور جهاز النطق jeu de l'appareil vocal) ستصبح ذات أهمية ثانوية إذا اقتصرنا دورها على تمييزها عن غيرها من الأنظمة السيميولوجية. هذه العملية ستؤدي بنا إلى ما هو أكثر من مجرد الكشف عن المعضلة اللغوية واعتقد أننا بدراسة الطقوس والعادات وغيرها من الظواهر على أنها علامات سنلقى ضوءا جديدا على تلك الحقائق وسندرك الحاجة لوضعها جميعا في إطار علم السيميولوجيا ولتفسيرها حسب قوانين هذا العلم.

فصول من دروس في علم اللغة العام

فرديناندي دي سوسير (1857 - 1913)